الفرنسي وشريف باشا ، وهو يخصني بنصيب من غضبه مدعيا بانني كنت مستشارا للقنصل الفرنسي ٠٠٠ والحقيقة انني لم التق القنصل الفرنسي الا بوجود اشخاص اخرين ، ولم أقم بزيارة شريف باشا او اذهب الى القصر طوال فترة التحقيق ، ولم اذهب مرة واحدة الى الحي اليهودي من المدينة ٠٠٠٠ انني اعتقد ان الحقيقة هي كما ذكرتها في رسالتي الى اللورد بالمرستون » (٨) ٠

وفي رسالة اخرى بعثها القنصل البريطاني في دمشق ، بصفة شخصية ، الى بيدويل ، ومؤرخه بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٢٢ ، يقول مدافعا عن نفسه : « انني اجد ان صديقي السيد بيرتز ، المبشر المكلف بمهمة تنصير اليهود في القدس ، غير قانع بالتشهير بي في بيروت ، مدعيا بأنني قمت بدور نشط في توجيه التهمة لليهود بقتل الراهب توماسو وخادمه ، وأنني احمل عواطف متعصبة ضد اليهود ، بل ذهب الى الاسكندرية وشكا من سلوكي امام الكولونيل هورجز [القنصل البريطاني في الاسكندرية] ٠٠٠ انني اقسم لك بشرفي بأنه لم يكن لي اي دور في ما تم من اجراءات ، بأية طريقة كانت ، وانني بريء كليا من جميع التهم التي يلصقها بي السيد بيرتز » (٩) ٠

اننا لا نستطيع الزعم بأن بامكاننا اعادة تركيب صورة ما حدث في دمشق عام ١٨٤٠ بين ٥ شباط و ٥ ايلول من ذلك العام ٠ غير ان ما بين ايدينا من وقائع ومعطيات يمكننا من القول ان حادثة دمشق عام ١٨٤٠ لم تكن حادثة محلية ، وان اعطاء الانطباع في العواصم الاوروبية وفي اميركا بأن الحادثة تعبر عن تعصب الشرق وتمسكه بالخرافات وتميزه بالقسوة ، لم تكن عملية بريئة ابدا ٠ فقد اتضح ان القنصل الفرنسي هو صاحب الدعوة ، وان القنصل البريطاني كان معجبا به وبنشاطه ، وان محمد علي امر بايقاف الاجراءات ، وان عدم انهاء القضية بسرعة يعود الى الضغط الخارجي ٠ كذلك نستطيع القول ان تفسير هذه الحادثة ، وقد وقعت حوادث مشابهة لها في اماكن كثيرة في الفترة الواقعة بين ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ ، لا يمكن ان يعتمد على دراسة الملابسات المحلية ٠ فقد يكون من بين الاسباب الدافعة لوقوع الحادثة وللضجة العالمية التي اثيرت حولها ، تشويه صورة محمد علي واعداد الرأي العام الاوروبي للحملة العسكرية التي شنتها الدول الاربع الكبرى في ذلك الوقت لاخراج محمد علي من سوريا ٠ ولكن عيب هذا التفسير ان هذا الغرض يخدم بريطانيا وليس فرنسا ٠ ان المؤرخ والزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف يقدم وجهة النظر التالية في هذه الحادثة: « ان هذه الحوادث قد ايقظت بني اسرائيل من سباتهم العميق ٠ وقد حركت الرأي العام اليهودي في العالم اجمع وخاصة في انجلترا وفرنسا ٠ ومثل جميع الاضطهادات فقد عملت على تعزيز التضامن اليهودي ٠٠٠ ان حادثة دمشق مثل جميع الاحداث التي جرت قبلها وبعدها